

وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾

الاستجابة إلى التوحيد

(039) سورة الزمر

اللقاء الثامن من تفسير سورة الزمر - شرح الآيات 38-44

2022-06-04

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته: بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا الأمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين. اللهم علمنا ما ينفعنا، وأنفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً مُتقبلاً يا رب العالمين. اللهم أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم، ومن وحول الشهوات إلى جنات القربات، وبعد: مع اللقاء الثامن من لقاءات سورة الزمر ومع الآية الثامنة والثلاثين من السورة، وهي قوله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (38)

(سورة الزمر)

دائماً نذكر أنفسنا بموضوع السورة وهو **التوحيد**. كل الآيات تصبّ في موضوع السورة الرئيس، وهو إثبات الوجدانية لله تعالى، وهذه الآية تتابع الحديث ضمن موضوع التوحيد وبشكل مباشر، وبشكل يتعلق بما يسميه العلماء اليوم **توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية**.

توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية:



التوحيد جزء واحد

التوحيد حقيقةً هو واحد، ليس هناك أنواع للتوحيد أو أقسام للتوحيد، التوحيد جزء واحد. لكن مدرسياً تقسيم مدرسي، يقولون: توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، ويضيف بعضهم توحيد الأسماء والصفات؛ بمعنى أن **توحيد الربوبية** هو: أن تؤمن بأن الله تعالى هو الخالق، هو الرازق، هو المُمد، هو الرب.

الرب هو: الذي يربك، هو الذي يُمدك. فإذا سألتنا أي عاقل بالأرض: من خلقك؟ سيقول: الله، إذا كان متجرداً، من غير ضغوطات، من غير عوامل بيئية. إنكار الخالق هذا يُشكك في عقله لا في دينه. يعني إذا قال لك: أنا وُجدت من غير مُوجد، معنى هذا ما عنده محاكمة، مصادفة، يقول لك: كيف مصادفة؟! وأنت لا تستطيع أن تصدق أن كاساً انتقل من طاولة إلى طاولة أخرى دون أن ينقله إنسان، فكيف صدقت أن كلبتين تعملان بانتظام؟! وأن كبد يقوم بالآلاف الوظائف، وأن ثلاثمئة ألف شعرة في رأسك، لكل شعرة غدة دهنية، وغدة صبغية، وشريان، ووريد، وعضلة، وعصب. وعين وقرنية وشبكية وقزحية و

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقُ الْإِنسَانِ مِنْ طِينٍ ۚ وَإِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّالْعَالَمِينَ (22)

(سورة الروم)

كيف تريد أن تصدق أن هذا وُجد مصادفة؟! مستحيل. **فالربوبية هي:** أن تؤمن أن الله هو الذي خلق، وهو الذي يرزق، هو الذي ينزل المطر، هو الذي ينبت الزرع. يعني ما يأتينا من الله هو الربوبية.

الألوهية هو: التوجه. تتوجه إلى من؟ معظم المشركين ليس عندهم إشكال في الربوبية حتى مشركي العرب الذين كانوا يعبدون اللات والعزى، كانوا يقولون:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَلَيْلَهُ لَدِينٍ وَخَالِصٌ وَتَلْبِيزٌ ۚ تَحْدُوا مِنْ دُونِهِ ۚ أَوْلِيَاءَ مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُوا إِلَى اللَّهِ زُلْفَتَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (3)

(سورة الزمر)

وهنا يثبت الله تعالى ذلك (وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمُوتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ) ما عندهم مشكلة في نسب الفضل في خلقهم، وفي رزقهم إلى الله. ومع ذلك هم مشركون. لماذا؟ لأنهم بعد أن أقروا بأن الله تعالى هو الذي يخلق، وهو الذي يرزق، اتجهوا إلى غيره يطلبون منهم حاجاتهم. فيذهب إلى صنمه ويسأله، ويدعوه، ويرجوه، تماماً؟ وهو يعلم أنه لا يملك له صراً، ولا نفعاً، ولم يخلق، ولم يرزقه. إذا هنا الإشكال. فقال تعالى: (وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمُوتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ)

طبعاً، السموات والأرض مصطلح قرآني يعني كل ما سوى الله. أينما قرأت في القرآن: السموات والأرض. تعني كل ما سوى الله. يسميه العلماء المعاصرون **الكون**. يعني مصدر كان، يكون، كوناً. يعني كل ما هو كائن، كل ما هو موجود، **السموات والأرض** هو التعبير القرآني المصطلح المعاصر الكون. (لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ) يُقرون بأن الله تعالى هو الذي خلق.

الآن، (قل) يخاطب نبيه صلى الله عليه وسلم (أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۚ) أفرايتم هنا الرؤية القلبية، وليست الرؤية البصرية. رأى في اللغة العربية تأتي للبصر، وتأتي للقلب. تقول: رأيت الطاولة، هذا بصر. رأيت العلم نافعاً، هذه رؤية قلبية. رأى القلبية تأخذ مفعولين. تقول: رأيت الله في الدنيا. الله لا يُرى في الدنيا أكبر كل شيء مفعول به ثاني يوضح، رأيت الله أكبر كل شيء، رأيت العلم نافعاً، أمّا رأيت الجدار، انتهى المعنى بمفعول به واحد. فرأي البصرية تأخذ مفعولاً به واحداً، رأى القلبية تأخذ مفعولين؛ مفعول أول، مفعول ثاني حتى يتضح المعنى، فهذه الرؤية هنا هي رؤية القلب. (قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۚ) تتوجه إليه، تدعوه، ترجو منه، تطلب منه.

درء المفاسد:

(إِنْ أَرَادَيْتَ لِلَّهِ بِصُرٍّ) هنا المفعول به الثاني، لا أريد أن أدخل كثيراً بتفاصيل اللغة، لكن المفعول به ثاني هنا سد مسدده الشرط، تنمة الكلام. (إِنْ أَرَادَيْتَ لِلَّهِ بِصُرٍّ هَلْ هُنَّ كَتَيْبَتٌ صُرٌّ) أصدانكم التي تدعونها من دون الله، وتعدونها من دون الله، وتتوجهون إليها (إِنْ أَرَادَيْتَ لِلَّهِ بِصُرٍّ هَلْ هُنَّ كَتَيْبَتٌ صُرٌّ) هل تستطيع أصدانكم أن تكشف الضر الذي أراه الله بي؟ أن تزيله، أن تلغيه؟ إذا ربنا عز وجل أراد بإنسان مرضاً، هل هناك من هذه الأصدان من يستطيع نزع الضر عنه؟ هذا المعنى.



درء المفاصد مقدم على جلب المصالح

(أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمَسِّكَةٌ رَحْمَتِي) وإذا أراد الله تعالى بإنسان رحمة، مال، جاه، خير، خير الدنيا. (أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمَسِّكَةٌ رَحْمَتِي) يعني تمنع رحمته عن الناس إن أراد بهم الرحمة. طبعاً، بدأ بالضر وثبى بالرحمة؛ لأن درء المفاصد مقدم على جلب المصالح. الإنسان دائماً، يتبعد عما يضره قبل أن يرجو ما ينفعه. إذا أنت كنت تريد أن تعبر الشارع. في الطرف المقابل رأيت مبلغاً مالياً، وتريد أن تعبر الشارع لالتقاط المبلغ المالي، هذه منفعة تريدها. إذا هناك سيارة مسرعة ألا تعود فوراً وتترك المنفعة من أجل ألا تصدمك السيارة المسرعة؟ فدائماً الإنسان يقدم درء المفسدة على جلب المصلحة. وفي الفقه الإسلامي درء المفاصد أولى من جلب المصالح، فإذا إنسان قال لك: أنا سأناجر بهذه المادة المحرمة، وما أتيني من أرباح منها سأنقعه على الفقراء والمساكين. فهل يجوز ذلك؟ نقول له: درء المفسدة مقدم على جلب المنفعة. نحن لا نريد أن نبيع الناس مواد محرمة ثم نتصدق بالمال على الفقراء والمساكين

{ إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً }

(رواه مسلم)

هذه درء المفاصد مقدم على جلب المصالح. لما نبدأ بالقرآن الكريم نبدأ بدرء المفسدة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (98)

(سورة النحل)

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم يعني: أنا أعوذ بالله من شر الشيطان، ليحميني من الشيطان، يعني درء المفسدة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لجلب الرحمة والمصلحة، فدائماً تخلية ثم تحلية. العوذ بالمناسبة. العوذ هو: الالتجاء إلى قوي لكي يقيك من الشر، واللوذ هو: الالتجاء إلى قوي لكي يجلب لك الخير. العوذ هو درء المفسدة، واللوذ طلب المصلحة، فنحن نعوذ بالله ونلوذ إليه. نلوذ إليه طالبين رحمته، ونعوذ به ليقينا من شر الدنيا وشر الشياطين. المتنبني قال:



إذا لذت فلذ بباب الكريم

لأسف المتنبني لم يكن يتكلم مع الله جل جلاله كان يتكلم مع سيف الدولة-الله بصلحه- لكن درجت على ألسنة الناس أنها مخاطبة لله. هو كن يمدح سيف الدولة، ولكن يمدحه بكلام لا يقال إلا في حضرة الله، فمن الجهل أن يعوذ الإنسان بشخص هو لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً. فتقول: أعوذ به مما أحاذره. وهل يستطيع هو أن يرد عن نفسه مرضاً إذا جاءه حتى تعوذ به. جهل مطبق أن يعوذ الإنسان بمن لا يملك، أو أن يلوذ بمن لا يملك. إذا لذت فلذ بباب الكريم ليمنحك السكينة والقرب، فإذا عدت به ليحميك من شر الدنيا وشر الشهوات وشر الشياطين.

{ بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً }

(رواه البخاري)

انظر إلى هذا البعد، اليوم يحتاج العالم الإسلامي موجة من الكآبة بسبب تنالي النكبات على الأمة. النبي صلى الله عليه وسلم كان في أشد حالات النكبة. ما استجاب شخص واحد بالطائف. ولا شخص، ثم يقول: عسى الله أن يخرج أصلابهم. يعني تغيير كأنه لا أقول: بأس منهم، لكن يعني الأمل شبه معدوم بهؤلاء لأنه الآن بدأ يتطلع إلى الذرية (بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً).

هذا الاستشراف للمستقبل، نظرة النبي صلى الله عليه وسلم، وفعلاً كان من أصلابهم من يوحد الله ويعبده. اليوم هناك أناس من أهل الطائف أجدادهم هم هؤلاء، لكن اليوم يوجدون الله، ويعبدونه وينزلون إلى مكة ويطوفون بالبيت، فهذا البعد النبوي صلى الله عليه وسلم.

(قُلْ يُقَوْمٌ [عَمَلُوا عَلَى مَكَاتِكُمْ] على مكاتكم، يعني على طريقتكم، وعلى قدر استطاعتكم، يعني أنتم ابذلوا جهدكم في الصد عن الدعوة إلى الله عزو وجل. ابذلوا جهدكم في شرككم، أفعَل ما تريد ([عَمَلُوا عَلَى مَكَاتِكُمْ إِنِّي غَامِلٌ] بمعنى أن الطرف الآخر مهما وجدت منه قوة في باطله، إياك أن تتوقف عن المطالبة بحقك، أو عن التحدث بالحق، إياك أن يحملك تمادي الباطل على أن تكف عن النطق بالحق. اليوم يقول لك أحدهم: أخي كما ترى الوضع سيئ جداً، كأننا ننفخ في رماد، ما أحد يرد علينا أبداً. يكفيك أن تبقى على النطق بالحق والثبات عليه. (إِنِّي غَامِلٌ) لن أتوقف. وانظروا لما قال: (قُلْ يُقَوْمٌ [عَمَلُوا عَلَى مَكَاتِكُمْ] اعملوا، يعني حدوث وتجدد. الفعل في اللغة العربية يفيد الحدوث والتجدد. الفعل دائماً يفيد الحدوث، فعل يحدث. إذا هم لن يتوقفوا، وهو يعلم أنهم لن يتوقفوا ([عَمَلُوا عَلَى مَكَاتِكُمْ] هنا ما قال: إني سأعمل، قال: إني عامل، هنا الثبات. اسم الفاعل يفيد الثبات. الاسم يفيد الثبات. الفعل يفيد الحدوث والتجدد، فأنتم لن تتوقفوا وستحدثون كل يوم مشكلة، وأنا سأبقى ثابتاً على العمل، إني عامل، أصبحت صفة ملازمة لي، التوقف عن العمل ليس من شأني، إني عامل، وما قال: ماذا سيعمل؟ لتفيد أن هذا العمل سيكون متناً دائماً ومتكرراً، وبطرق مختلفة من أجل هداية الخلق.

العذاب في الدنيا والآخرة:

(إِنِّي غَمِلٌ [قَسَوَفَ تَعْلَمُونَ] سوف للمستقبل، وسوف للمستقبل البعيد ليس القريب جداً. السين للمستقبل القريب، سوف للمستقبل البعيد. يعني ربما لا يُتاح أن تعلم الحقيقة الآن. ربما كافرٌ يعلم الحقيقة في الدنيا، وربما آخر يعلمها عند الموت، لكن سوف تعلمون.

(قَسَوَفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَجِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ) لا يخفى ما في (يأتيه) من عنصر المفاجأة. يأتيه، يعني العذاب يأتيه بغتةً. هذا في الدنيا، من يأتيه عذاب يخزيه في الدنيا، يخزيه عذاب الخزي من أعظم أنواع العذاب. خاصة الآن هنا النبي صلى الله عليه وسلم يخاطب قومه. يخاطب قريش، هؤلاء عزة العرب يعني تقول له: سوف يأتيك عذاب يخزيك. الخزي. هو العربي صاحب أنفة، لا يحب الخزي. كل إنسان لا يحب الخزي. أيضاً الكلام لقومه القرشيين أشد (مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَجِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ) أي ملازم دائماً، هذا يوم القيامة. فالعذاب في الدنيا خزي لهم، وفي الآخرة مقيم معهم؛ أي لا يفارقهم.

الكتاب أنزل بالحق:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَصَمِّعْ لِقَوْلِ اللَّهِ قَوْلًا بَدِيلًا وَمَنْ صَلَّ فَإِنَّمَا يَصِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (41)

(سورة الزمر)

في مطلع السورة، قرأنا:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (2)

(سورة الزمر)



الحق هو الشيء الثابت والهادف

(إِنَّكَ) هناك في مقام المواساة للنبي صلى الله عليه وسلم، فيها تشريف. أنزلناه إليك، وقد يقول: أنزلنا عليك. هنا (إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ) وخلق الله السموات بالأرض بالحق، فالحق لا يس خلق السموات والأرض، فإرن خلق السموات والأرض، ولا يس إنزال الكتاب. فالكتاب أنزل بالحق، و السموات والأرض خلقت بالحق، بمعنى ما هو الحق؟ من حق الشيء بحق، إذا ثبت، وكان له هدف. أنت عندما تنشئ جامعة ملتزمة بأهدافها في إنشاء جيل مؤمن عنده علم. هذه الجامعة حق. لما تنشئ سريراً في أيام العيد للعب الأطفال تنشئه بشكل خيمة تُزال بعد نهاية العيد. هذا باطل، لهو، لعب، أما هناك جامعات عمرها يزيد على المائة سنة لأنها أنشئت على بالحق فالحق هو الشيء الثابت والهادف والباطل هو الشيء العابت ليس له هدف وزائل:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (81)

(سورة الإسراء)

مهما رأيت من انتفاش الباطل فإنه زهوق وزائل (إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ) فَمَنْ هَتَدَى فَلْيَنْفُسِهِمْ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا) الهدى لك، والضلال عليك. عليك تحمل الوزر، وعليك تحمل المنفعة. (مَنْ هَتَدَى فَلْيَنْفُسِهِمْ) هدها يكون لنفسه مصلحة الهدى لنفسه (وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا) أي يحمل وزر ضلاله. وهذه الآية تؤكد أن الإنسان هو الذي يضل. في الأصل هو الذي يتخذ قراره بأن يهتدي أو يضل. فمن اهتدى هدها الله، ومن ضل أضله الله (وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا) وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ).

أي لست موكلاً بهم أن ترغمهم على الهداية، فهذا تخفيف عن النبي صلى الله عليه وسلم، أن المطلوب منك، والمطلوب مني اليوم، والمطلوب منا جميعاً في دعوتنا إلى الله تعالى أن نسمع الحق للناس، لكن ليس المطلوب أن نضعهم على الطريق، المطلوب منا أن ندل الناس على طريق الحق، لا أن نرغمهم على المشي فيه؛ لأن الله تعالى لو أراد أن يرغمهم لأرغمهم هو جل جلاله، وما ترك هذا الأمر لنا. قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْفِرُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (99)

(سورة يونس)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًىهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (13)

(سورة السجدة)

لو شاء الله تعالى أن يجعل الهدى قسرياً لأرغم الناس جميعاً على الطاعة، ألم يفعل ذلك مع ملائكته؟

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فُؤَادُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَفُؤَادَهَا النَّاسُ وَالْجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (6)

(سورة التحريم)

لكن الله تعالى ما أراد أن تكون علاقته بعباده علاقة قسر، قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۚ قَدْ تَبَيَّنَ لِلرُّسُلِ مِنَ الْعَرَىٰ ۚ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنِ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا يَفْصَامُ لَهَا ۚ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (256)

(سورة البقرة)

وإنما أرادها علاقة حب قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ۚ أَذِلَّةٌ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَىٰ الْكُفْرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ۚ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ (54)

(سورة المائدة)

فقال: (وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ).

الله تعالى هو الذي يتوفى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
اللَّهُ يَتَوَفَّىٰ الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَاللَّيَّ لَمْ تُمْتْ فِي مَتَابَعِهَا ۚ فِيمَنْسِكِ ۚ لَيْتِي قَصَىٰ عَلَيْهَا ۚ لَمَوْتٍ وَرُبُّ سَبِيلٍ ۚ الْأَخْرَجْتُ إِلَىٰ أَجَلٍ ۚ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (42)

(سورة الزمر)



الإنسان يتوفى أجله كاملاً غير منقوص

الآن، آية من آيات الله تشير إلى توحيد الله، ومتعلقة بإنزال الكتاب. كيف متعلقة بإنزال الكتاب؟ في الأصل فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها. حسناً، إنسان ضل عن الطريق المستقيم، وأخذته العزة بالإثم. هل يمكن أن يعود يوماً؟ لا تياس منه. وهذه آية كونية تثبت ذلك. هناك أشخاص ينامون فيتوفاهم الله تعالى في موتهم، فلا يستيقظون بعدها، وهناك أشخاص يستيقظون، ويعودون إلى الحياة. فكما أن الله تعالى يعيد إنساناً بعد أن يتوفاه في منامه إلى الحياة صباحاً، فإنه يمكن أن يعيد إنساناً بعد أن سلك طريق الضلال أن يعيده إلى طريق الهدى، هذه المناسبة بين الآيتين، فقال: (لِلَّهِ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ جِئْنَ مَوْتِهَا) الله تعالى هو المتوفي، قد يقال لملك الموت أيضاً متوفي، من باب أنه المباشر بالتنفيذ، لكن في الحقيقة الله تعالى هو الذي يتوفي. ولماذا سميت الوفاة وفاة؟ لأن الإنسان يتوفى أجله كاملاً غير منقوص. يعني الإنسان الذي يموت وعمره 70 سنة، و 3 أشهر، و 4 أيام، و 5 ساعات، و 7 ثوانٍ. هذا استوفى أجله كاملاً المقرر له ولا ينقص ثانية واحدة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَعِدُّونَ (34)

(سورة الأعراف)



الوفاة تأتي في الوقت الذي أَرَادَهُ اللهُ تَمَاماً

ساعة يعني برهة بسيطة من الوقت، وليس ساعة زمنية. الوفاة تأتي في الوقت الذي أَرَادَهُ اللهُ تَمَاماً، لذلك المتوفي هو الله. ومن الخطأ لغةً أن نقول: من المتوفي؟ أبو فلان، أبو فلان المتوفي وليس المتوفي؛ لأنه وقع عليه فعل الوفاة، أما المتوفي فهو الله. ويقال مجازاً للملك الموكل بقيض الأرواح متوفي؛ لأنه يقوم بذلك بأمر الله تعالى. فالله هو المتوفي. (لِلَّهِ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ) الأنفس هي الذات والشخص سواءً جسده أو نفسه، عندما تُنزع الروح من الجسد فيصبح جنّة هامة، فقد توفاه الله أجله، يعني ارتباط الروح بالنفوس بالجسد، هذه التركيبية الثلاثية تعطى مدة زمنية مرتبطة بوقت محدد من الله عز وجل هي مدة الاختبار، الموت تُرعت الروح تُوفي الله بأملك كاملة التي منحك إياها، كمقوم من مقومات التكليف، لما كلفك أعطاك زمن. أنت تقول لإنسان: أريدك أن تركض ثلاثة كيلو متر، لكن ليس معك وقت. كيف أستطيع أن ركض دون وعاء زمني؟ فحياتنا هي الوعاء الزمني للتكليف. حقيقةً، حسناً. سوف تقول لي: هناك إنسان أخذ زمن أكثر. هذا في علم الله

{ خير الناس من طال عمره، وحسن عمله. }

(رواه الترمذي)

هناك إنسان يمد الله في عمره و في عمله الحسن، هناك إنسان يعيش 90 سنة، ولا يفكر أن يتجه للقبلة، فالله تعالى أعلم بعباده.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَلَا تَمَتُّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِوَيْحِكُمْ عَلَى بَعْضِ الْرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَا لَكُمْ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَا لَكُمْ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ يَكُلُّ شَيْءًا عَليْمًا (32)

(سورة النساء)



التفصيل لا يعني الأفضلية عند الله

هناك تفصيل، ما ننكر أن هناك تفضيلاً، لكن هذا التفصيل لا يعني الأفضلية عند الله. تقول لي: هذا الإنسان مات في الستين، حسناً، لو عاش للسبعين كان أخذ عشر سنوات زيادة، كان أكثر من الأعمال الصالحة. وما أدراك أنه بعد الستين سترك دينه وعبادته؟ ما أدراك؟ فهذه حكمة الله. لكل إنسان أعطاه وقتاً، لكن الوقت كافي. مادام كُلف. من تكليفه لوفاته، ولو ساعة فهي كافية لأن يطيع أو يعصي. هناك أشخاص مع النبي صلى الله عليه وسلم أسلموا، وخرجوا للجهاد، فماتوا ولم يركعوا لله ركعة. يعني هو عاش بالإسلام عشر ساعات، أربع ساعات، كانت كافية لكي يعبر عن موقفه الكامل، وانتهى بالنسبة لربنا عز وجل. الموضوع أصبح واضحاً جداً، هذا إلى الجنة. تمام؟ يعني أنت أحياناً في امتحان شفهي للتقريب. هناك امتحان شفهي. أنا كنت أقوم للطلاب بامتحان. مقابلة هذه ليست علي الورق. مقابلة هناك طالب بعد دقيقة واحدة اكتشف أن هذا الطالب ناجح بعد دقيقة واحدة. في سؤال مفصلي لما يجب عليه معناه كل الأسئلة الباقية أصبحت من المسلمات، أنا كمدرس أعلم ذلك، فبعد دقيقة أضع له نجاح. وهناك طالب أعطيه ربع ساعة حتى اكتشف أن هذا الطالب يستحق الرسوب منه بالتمته. ولله المثل الأعلى طبعاً، لكن حتى أبين أن المدة هذه في علم الله. (وَلَا تَمَتُّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِوَيْحِكُمْ عَلَى بَعْضِ) لكن أنا أخذت مدتي الكافية.

(لِللَّهِ يَتَوَفَّى) لِأَنْفُسٍ جِيْنَ مَوْنَهَا وَآلِيْنَ لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا) أي ويتوفى التي لم تمت في منامها، فسُمي النوم. النوم هنا وفاة، لأنه يشبه الوفاة في أن الإنسان في النوم لا يستطيع أن يدير جسده. طبعاً، تبقى بعض الحركات التي من نعم الله علينا أنها تبقى. يعني التنفس لو كان إرادياً لما نام الإنسان؛ لأنه إذا نام يموت. هناك أشياء تعمل، الكلية تعمل، كبد يعمل. هذه من نعم الله علينا، لكن الإنسان في النوم، أين يذهب بالمنام؟ لذلك المنام أحياناً الإنسان يكون في عمان يرى نفسه في القطب الشمالي، ويعني يعتقد بأنه أصبح هناك وأنه في عالم آخر. إذاً الله توفى نفسه، لم يعد هو قادراً على إدارة جسده، لذلك قال: (وَآلِيْنَ لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا) يعني في نومها، (فَيُمِسُّكُ) التي قَصَى عَلَيْهَا لَمَوْتِ) لما يتوفى الإنسان في منامه. هناك أشخاص ينامون فلا يستيقظون، هذه قضى الله عليها الموت انتهى. قضاء الله نافذ، (فَيُمِسُّكُ) التي قَصَى عَلَيْهَا لَمَوْتِ) لا يستيقظ، لذلك من الدعاء النبوي قبل النوم.

{ رَبِّي وَصَعْتُ جَنِّي، وَبِكَ أَرْقَعُهُ، إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا، فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ }

(متفق عليه)

إن أرسلتها، يعني أطلقتها ليوم جديد فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين (فَيُمِسُّكُ) التي قَصَى عَلَيْهَا لَمَوْتِ وَبُرْسِلُ لِأُخْرَى) يطلق الأخرى. يرسلها من الإرسال، وهو من الإطلاق، (إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى) التسمية بمعنى أن هذا الأجل معين، مسمى من باب التعيين يعني أنه قد عُيِّن وقته. فحتى الذي يستيقظ من نومه لا يعني ذلك أنه سيستيقظ كل يوم. استيقظ اليوم لكن قد لا يستيقظ غداً، فالإنسان هناك يوم سيأتي عليه بنام فلا يستيقظ، أو يستيقظ فلا ينام. هذه سنة الله (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) أي في هذا الآية، آية الموت، وآية المنام الذي يشبه الموت. هذا فيه آية لمن يتفكر. والتفكير هو: زيادة في أعمال الفكر. فكر وتفكر يعني أكثر من أعمال فكره في هذه الآية فنفعته.

مفهوم الشفع:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَمْ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْلُو كَاتِبُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ (43)

(سورة الزمر)

ما زلنا في موضوع التوحيد (أَمْ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ) في الأصل الشفع هو الزوج، والوتر هو الفرد، قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِيرٍ (4)

(سورة الفجر)

أقسم بالشفع، وأقسم بالوتر. فالله تعالى من أسمائه الوتر؛ لأنه فرد صمد لا ثاني له.

{ إِنَّ اللَّهَ وَتَرْتُجِبُ الْوَتْرَ، فَأُوْتِرُوا، يَا أَهْلَ الْقُرْآنِ }

(رواه أبو داود والترمذي)

الوتر: صلاة الوتر، فالشفع هو الزوج. ما معنى أن يشفع لك إنسان؟ هنا الزوجية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ بِهَا تَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيبًا

(سورة النساء)



النبى الكريم سيشفع لنا يوم القيامة

يعني لما يذهب إنسان ويوفى بين زوجين، يشفع بينهما. يا جماعة فلان رجل صالح، وأعلمه صالحاً، وإن شاء الله يحفظ ابنتكم، فنريد أن نخفف عنه بعض المهر، أو بعض الحاجات حتى تكسبوا شاباً صالحاً، هذا شفيع. جمع بين شيتين زوج. هذه شفاعة. شخص ذهب إلى آخر فلان له معه مبلغ من المال، وفلان أمين لكنه معسر، وأنا أعلم أنه معسر فلو أمهلته، أو لو قسطت له المبلغ أو لو تصدقت عليه بعضه، هذا يشفع. يجمع بين الشيتين. فالنبي صلى الله عليه وسلم سيشفع لنا يوم القيامة هو شفيعنا صلى الله عليه وسلم. شفاعة بالمفهوم الحقيقي للكلمة لمن يطيع الله تعالى. لمن لا يهجر سنة النبي صلى الله عليه وسلم. فمن شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم أن يخرج أقواماً من النار فيدخلهم الجنة، هذه ثابتة. من شفاعته صلى الله عليه وسلم أن يبدأ الحساب بعد الوقوف في أرض المحشر. من شفاعته أن يرفع أقواماً من درجة إلى درجة في الجنة. فشفاعة النبي متعددة، لكن لا يشفعون إلا لمن ارتضى، يعني الشفاعة تحتاج إلى إذن الله تعالى. لا يمكن لأحد أن يشفع لأحد إلا بإذن الله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا ۖ لَهُ ۖ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (44)

(سورة الزمر)

مادام الإذن من الله فالشفاعة له جل جلاله هو بأذن لمخلوق فيشفع، ولا بأذن لآخر فلا يشفع. إذاً الشفاعة من الله، قال: (أَمْ تَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ۚ قُلْ أَوْلُو كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ) أنت كيف توكل إنساناً أن يشفع لك وهو لا يملك شيئاً أبداً. والأشد من ذلك أنه لا يعقل. قلت لكم سابقاً العقل هو عملية المحاكمة. أنت تعقل الأشياء، تفهمها. فهؤلاء لا يعقلون، العقل له معنيان **المعنى الأول**: الربط، العقل الناقه، أي ارتباطها. والعقل يعقل نفسه، فيمنعها من الوقوع في المحرمات وفيما يشينها في الدنيا وفي الآخرة، عند الله، وعند الناس. لذلك لا تجد عاقلاً يشرب خمرًا؛ لأنه يعقل يعني يربط نفسه. ولا تجد عاقلاً يأخذ ما ليس له؛ لأنه عقل نفسه، منعها من السرقة. فالعقل هو المنع. والعقل هو الفهم محاكمة الأشياء وفهمها. فهؤلاء لا يعقلون، يعني لا هم قادرين على عقل شهواتهم ولا لهم محاكمة وعقل يجعلهم يتصرفون بالشكل الصحيح. كالمجنون فهؤلاء الشفعاء سواء كانوا أصناماً يتحدثون مع قريش الذين كانوا يعبدون الأصنام واتخذوهم شفعاء. لكن اليوم في أنواع للشرك كثيرة، فكم منا من الناس من المسلمين -نسال الله السلامة- يتخذ شفعاء من خلق الله تعالى و يظن أنهم يشهون له عند الله و الأمر ليس كذلك (قُلْ أَوْلُو كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ) (قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا) الشفاعة له جل جلاله ،حال كونها جميعاً ،جميعاً حال. (قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا ۖ لَهُ ۖ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) وكان هذه الجملة الأخيرة تعليلية، يعني بالمنطق إن عقلت الأشياء عقلاً صحيحاً. من الذي يملك الشفاعة؟ هو الذي يملك. الذي لا يملك لا يملك شفاعة، فقال: (قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا ۖ لَهُ ۖ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) فهو يتصرف كيف يشاء جل جلاله (ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) فوق أنه يملك كل شيء مرجعك إليه (قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا ۖ لَهُ ۖ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) ، و الحمد لله رب العالمين.